سلسلة مقالات في الاخلاق

٣

التربية على الحكم الخلقي الصحيح

ان عمل المربي لعظيم في تربية الناشيء على الحكم الخلقي الصحيح والتمييز بين الاشياء غثها وسمينها

فهو الذي ينمي ماورثه الطفل من الأخلاق المحمودة والصفات الممدوحة من سلفه ويصلح أو يزيل مالايراه موافقا لروح عصره وملائما للبيئة التي فيها درج ويمده بما يناسب زمنه وطبقته ويقوى «استعداده الخلقي» ويحول ميله الفطري إلى مايحسن أثره ويجزل نفعه .

وعمله بالنسبة للشرط الثاني — قوة التفكر والتدبر — أكثر أهمية في الحياة لأن التفكر والتدبر لاينشأ ان من قلب أجوف وفؤاد هواء بل عن معلومات كثيرة وأفكار متنوعة وعلم جم يوحي إلى الانسان ماينبغي أن يعمله ويصرفه عما يحسن به أن يهمله حتى اذا انبت به الطريق قبل أن يدرك مأربه وينتهي إلى غايته لم يطر لبه شعاعا ولم تعي به حيلته فانه من مدخره مايخرجه من كل مأزق موفور الكرامة محترم الجانب — وتمرنه على الحكم الخلقي الصحيح يجعله يختار طريقا قويما ومذهبا موصلا الى مايبغي نيله ويروم دركه .

وان الصانع الماهر أو المصور المتفنن ليستفيد من زيارته معرضا للمصنوعات اودارا للعاديات اكثر مما يستفيد من كتاب فى الفن يقرؤه أو درس يلقى عليه لأنه والحالة هذه قد ترك ونفسه وخلى بينه وبين ماتحدثه فيه الصورة المعروضة من عاطفة وميل أو يوحيه إليه وجدانه أو روح مصورها وصانعها وهذا فى الواقع أكبر أثرا وأكثر نفعا .

وكذلك نحن نتعلم من دروس الحياة ومراقبة أحوال الناس علما غزيرا وتجارب صادقة مفيدة ـ وما أحسن ماقاله بعض المفكرين وقد سئل ممن تعلمت الأدب فأجاب ممن لايحسنه فقيل له وكيف يكون ذلك ؟ فقال خالفته فى عمله فوصلت إلى ماانقطع عنه !

والناس فى الحياة كلهم متعلم ومتعلم منه فالمدنى يتعلم من الجندى دروسا والتاجر يأخذ عن الزارع فنونا وكلاهما يقتبس من الصانع الوانا من ضروب الحياة لأن كلا لغيره خادم وبعمله خبير :

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فضل الحياة العملية

وليس النشاط وحده بكاف فى بلوغ منزلة الحكم الخلقى الصحيح مالم يساعده الذكاء الفطرى والتنبه العقلى ويكمله التمرن العملى — ومن

المحقق أن الحياة الفاضلة لاتنال الا بالسير فى طريق الفضيلة والجرى على قوانينها حتى تصير من عادات طالبها — والمرء يتعلم من صعب الحياة أكثر مما يتعلم من سهلها ومن لم يقع مرة فى حفرة الغلط لم يدرك محجة الصواب اذ « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » وما اصدق المثل العامى «من لدغته الحية يفزع من الحبل »

من هذا نعلم أنه من المحال أن يدرك انسان — ولو نال من الشهادات المدرسية أسماها على أثر تركه الدراسة — من ضروب الحياة العملية وصروفها المختلفة وأحوالها القلب ودقيق حيلها وطرق تصريفها مايدركه الجاهل من رجال العمل الخبيرين بالحياة العملية

يطرق المرء باب الحياة العملية هيابا وجلا كأنه يسبح فى بحر لجى لاساحل له ثم يطمئن قلبه ويهدأ باله شيئا فشيئا ويقترب من ساحل النجاة بالمرانة والعمل يوما فيوما ويحس ماعليه من واجبات لوالديه ومساعدة لقريب أو صديق وجد لنيل مركز أسمى أو سعى لكسب القوت أو عمل يعقب منفعة تعود عليه أو على وطنه — كل هذه الغايات لايدركها المرء تمام الادراك الا بعد الخوض فى غمار الحياة وذوق حلوها ومرها وركوب سهلها ووعرها وكلها أشياء لاتنال بالتلقين ولا تؤخذ من قراءة الكتب أو سماع الأمثال والحكم والعلم الحقيق ذو الأثر الصالح ما كان نتيجة التجارب وريب الاحساس والشعور

التجربة والتلقين

أمن الممكن أن تمر الايام بأحد منا دون أن يضحك من نفسه لانه كان يلفظ ألفاظا كالشجاعة والكرم ودقة الاحساس ورقة الشعور وكالحرية والاستقلال وكثير غيرها من الالفاظ الخلابة السهلة النطق التى لايفقه كنهها ويحس وقعها ويدرك أهميتها إلا بعد تجارب عدة ومشاق كبيرة ! !

الوعاظ والنقاد

وكثير من الاشياء الهامة والقوانين العامة والحكم المقبولة والامثال السائرة التى هى نتيجة العقول المفكرة والآراء الناضجة لانأبه لها ولا نعيرها كبير التفات لكثرة سماعنا لها ووقوعها تحت حسنا فنحسبها فى عداد المعلومات الشائعة العامة التى لاتلبث طويلا حتى تدفن فى قبر الاهمال ـ لهذا نجدنا فى حاجة ماسة إلى الوعاظ المذكرين والنقاد المبصرين ـ فالوعاظ هم الذين يذكروننا عمل سلفنا الصالح ويقرئوننا حكم الانبياء الهادين صلوات الله عليهم وسلامه ـ والنقاد هم الذين يكشفون الغطاء عما أغفلته يد النسيان أو خطه قلم التهاون ويزيلون ماران على القلوب من مشاغل الحياة ؟

عبد الحميد مصطفى